في ذكرى رحيله..

رياض إبراهيم بين تخوم الطفولة والموت

كريم جواد

"انتفاضة عصفور طيب"× للشاعر الراحل رياض إبراهيم، يمكن القول، إنه بيان طفولة، الطفولة التي يدعوها الشاعر بـ "ذلك الحلم المتأخر" ص ٦٢، المتأخر في تجليه أو تحققه. إن عنوان المجموعة، وسيتأكد هذا المعنى في النصوص أيضا، يوجز التعارض بين مسعيين: الرغبة في الاحتفاظ بالطفولة أو استعادتها من جهة، وضرورة الثورة على الواقع متمثلا بإدراك فقدانها، أي الطفولة، من جهة أخرى. فالطيبة ستبدو لاقترانها بعصفور، ورغم جدية النبرة، أشبه بعبارة مكتوبة في دفتر طفل، إذ مَن غير الطفل سيفكر بالتمييز بين العصافير؟ بيد أن الطفولة لدى رياض ليست ضدا للشيخوخة، ولا هي أيضا رمز براءة مفتقدة بالضرورة؛ إنها شرط توازن وانسجام، مصالحة مع العالم لكن ليس من خلال الإذعان للواقع، لهذا يحاول الشاعر استعادتها بإلغاء المسافة بين العصفور وطيبته، إذا جاز القول، وبالانتفاض أو الثورة التي تتطلب، وهذا مكمن التعارض، وعيا أو إدراكا غير طفولي للأنا في لحظة انفصالها عما يحيط بها.

شعر رياض إبراهيم إذن يقيم في المسافة بين الانسجام، وإدراك الفوضى.

ويمكن تسمية تلك المسافة بـ"الواقع" كما رآه الشاعر وحاول تغييره في قصائده التي تبدو والحالة هذه، كأنها صرخات احتجاج، لكنه احتجاج شعري غير عنيف بالتأكيد، لهذا يتمثل بالإشارة: "أمس/ حين أقفل الليل بابه/ أفرغت حنجرتي من صراخها/ وانتظرت أحدا يشتمني/ لأمارس احتجاجي/ بالإشارة" ص٤٥، الإشارة سواء بالمعنى الصوفي الذي يستثمر الشاعر تعابيره كثيرا، أم كناية عن نبرة خفيضة ميزت شعر رياض إبراهيم وقلة من شعراء تلك المرحلة مقارنة بالشعر السائد آنذاك، منذ نهاية السبعينات وحتى الإطاحة بنظام صدام عام ٢٠٠٣، حيث لم يعل على أصوات المدافع إلا هدير قصائد الحرب. وتجد المسافة أيضا رموزها في شعر رياض من خلال عبارات تؤكد ثنائيات الواقع/ الحلم، الطفولة/ الوعي، الهنا/ الهناك، الخ... ففي أولى قصائد المجموعة، لم تحمل عنوانا، يقول الشاعر: "أيتها الوردة/ ما بيننا قطرة ندى/ ومسافات من الفوضى" ص ٧، قطرة الندى هي زوادة الشاعر، وربما حبر قصائده، كما أن كلمات "الخرائط" و"المفازة" و"الشوارع" وأخرى ذات دلالات مكانية تتكرر كثيرا في قصائده لتؤكد هذا المعنى: "من أين قل لي بالرب نشتري الرفقة/ والخريطة؟" ص٤٠، أو قوله: "طويلا توهمت أن الخرائط/ خاصة بالحروب../ لذا كنت أحرق الخرائط/ من أجل نهاية سعيدة للكون" ص٣٠.

إن التماهي مع العالم أو الكون عبر لغة تستحضر أحيانا هذيان الصوفيين و"رؤيا" هم كمحاولة لاستعادة الطفولة أو العودة إليها، حل شعري جربه رياض في بعض قصائده ابتداء من منتصف الثمانينات وحتى وفاته. وكان واضحا كما تبين مجموعته "انتفاضة عصفور طيب" أن ردم المسافة – الواقع أو عبورهما إلى الضفة الأخرى، كان من مشاغل رياض إبراهيم الشعرية. يقول في قصيدة "غبار لأسئلة الطفولة": "الأفق نجمة تبرق وجهي/ والشمس بعض خرافتي" ص١٨، وفي أخرى: "كل شيء في الكون/موصول بي/ وحين أعانقك تسقط الشمس/ مثل قطرة ماء" ص٧٦. هذا الانشغال بردم المسافة ومعانقة العالم يتضح أيضا في قصائد أخرى هي أقرب في لغتها إلى اليومي بتفاصيله المألوفة وإن جاءت بأسلوب القصيدة القصيرة ذات الضربة أو التوقيع:

"أركض مع شجرة هاربة من معتقل
أقودها إلى حديقة قريبة
من أجل أن لا تصبح الحديقة
ساحة استعراض عسكري" ص٣٢.

إن ما يفصل بين الشجرة والحديقة هو ذاته الذي يفصل بين الشاعر وطفولته، لهذا يركضان معا باتجاه واحد.

رحلة رياض إبراهيم من بغداد باتجاه المنفى ووفاته في ١٩٩٧/٥/٣ في مدينة زاخو على الحدود، تسهل بالتأكيد قراءتها في سياق "انتفاضة عصفور طيب"، أي بوصفها قصيدة كتبها الشاعر بجسده، وهي تمثيل مباشر لفكرة الثورة والخروج على الواقع كما عبر عنها في قصائده. لكن هل كانت محاولة الشاعر الخروج من العراق محاولة خروج مزدوجة ضد الواقع والشعر معا؟ هل فقد رياض الإيمان بالشعر فقرر قطع المسافة باتجاه الطفولة على قدميه؟ الطفولة هنا ليست قرينة المنفى بالتأكيد وإنما الموت، رياض كان يدرك ذلك بدلالة رحيله المأساوي المبكر. ألم يقل في قصيدة تعود إلى العام ١٩٨٣، وتحمل عنوان "أحزان رياض إبراهيم": "ورياض تجلده الحدود" ص١٠٠، ثم في أخرى عام ١٩٨٦:

"عطارد تنام في فراشي
وأنا ثابت
في مركز هلوستي
تحبل بي الأرحام
تتمخض
تلد الدهشة وجهي
ثدي الأرض في فمي طين مالح"
ص٢٧.

فالموت يمثل عودة إلى الرحم بانتظار ولادة ثانية كما هو الحال في استعارة الرحم والقبر المعروفة. لكن لماذا الموت في مدينة حدودية؟ أهو تأكيد لغربة عاشها الشاعر في وطنه وأراد استئنافها في الموت، أم لأن للطفولة كالحلم وطنا يقيم على التخوم. يقول رياض وكأنه يرى موته أو حضور طفولته:

"ضعوا المتاريس حول هذه الدمعة
حاصروا طائر الحزن هذا
لقد أسلمت وجهي
وأغطية نومي
وأظافري
لأول نقطة حدود
ولم أحلم بعدها" ص٧٢

وأيضا:

"اقرئي على أصدقائي وصيتي
أنا مصغ إليك جيدا" ص٥٦.

× المجموعة الشعرية الوحيدة للشاعر الراحل رياض إبراهيم، صدرت في دمشق عن دار الوراق عام ١٩٩٨ بإشراف السيدة زوجته، وبما توافر من شعره آنذاك. والمجموعة لا تتضمن كل ما كتبه الشاعر، وإنما قصائد ومقاطع من دون عناوين أحيانا تعود لمراحل مختلفة من مسيرته الشعرية التي بدأت أوائل السبعينات من خلال النشر في جريدة المرفأ في البصرة وتواصلت في بغداد عبر مجلات أدبية عراقية وعربية.

البرج العاجي

▪فوزي كريم

آن ستيفنسون: إضاءة شعرية في العزلة

آن ستيفنسون شاعرة معتزلة. ولدت في أمريكا من أب فيلسوف، سرعان ما عين بعد ولادة آن بستة أشهر في كمبرج. انكلترا، فرحلت العائلة وآن لتقيم حتى اليوم. حرفة الأدب أدركتها بسنوات عمر مبكرة، وحرفتها عن مسار حلمها أن تكون موسيقية. تعتبر اليوم أملي ديكنسون معاصرة، وريثتها في "الكثافة التي تكتفي بمساحة كانفس صغيرة"، على حد قول أحد النقاد. تزوجت مرات أربع، ولها حتى اليوم قرابة خمس عشرة مجموعة شعرية. عزلتها لم تضع اسمها في الظلال قدر ما فعل كتابها الذي وضعته عن الشاعرة الأمريكية المنتحرة سليفيابلاث. فالكتاب أثار أكثر من ردة فعل، ورفع اسم آن ككاتبة سيرة علي حساب سمعتها كشاعرة. على أن القارئ الجدي الذي لم يغفل أصواتا شعرية مثل ديكنسون أو إليزابيث بيشوب، لن يغفل صوتها بالتأكيد. في حوار أخير معه تقول إنها أنهت كل اشتراكاتها بالمجلات الشعرية، وتحولت الى الاشتراك في مجلة New Scientist: "مشكلتي أنني لا أنتسب للفكرة الشائعة اليوم عما يجب أن يكون الشاعر عليه. لم أطمع يوماً أن أكون نجماً شهيراً، وأكره ترويج السوق الشعري".

في واحدة من قصائدها في منتصف الثمانينيات تحت عنوان "كتابة الشعر" تكتب: "إن أردت أن تصنع الشعر عليك أن تقيم فيه".

ولكن ما معنى "أن تقيم"؟/ أن تكون مدمناً عليه، أن ترتدي
كلمات، تجلس في ضوء أكثر جلاءً،/ في حرير الصباح، وفي نعل الليل.
شعور بأنك عار وورقة سرخس في هواء مفاجئ،/مألوف...ونادر.
وما معنى "أن تُصنع"؟/ أن تكون وتصبح مناخ كلمات عابر،
وتعين فتاة في الأوان الصعب، / وترتقي الترحال على متن الأصوات،/ أن تتجنب مرتفع الأنا، وينبوع البؤس،/وهسيس سيرانة النشر، النجاح، النشر، النجاح، النجاح، النجاح.
(السيرانة كائنة أسطورية تسحر بصوتها ملاحي البحار)

منفى ستيفنسون الاختياري نتاج موقفها المتعارض مع ورشات تعليم الشعر ومسابقاته الشائعة هذه الأيام. في سنواتها المتأخرة (ولدت عام١٩٣٣) دبّ في أذنيها الصمم بصورة تدريجية، الأمر الذي جعل من وجودها بين الجماعة في أي نشاط أمراً غير مريح. على أنها وجدت في صممها هذا شيئاً نافعاً. لنقرأ هذا المقطع من إحدى قصائدها:

فقدت حاسة. ولكن لمَ الهم؟
حين بحثت داخل النفس عثرت على احتياطي.
الحاسة السادسة تلك التي أحتفظ بها معافاة

وأطلقها رشيقة كشرك. الناقد دانمور، صاحب دار Bloodaxe، التي أصدرت مجموعتها الشعرية الكاملة اليوم، يرى أن فقدان السمع لشاعرة مثل آن ليبدو من سخرية الأقدار، لأن "ميزتها الغريزية كشاعرة كامنة في أذنها الرائعة". والشاعرة تعترف بأن "إيقاعاً موسيقياً تسمعه أو عبارة موسيقية كثيراً ما يكونا دافعاً أساساً للكتابة". ولا عجب فالموسيقى كانت هدفها الأسمى منذ صباها الأول، وهي محور عدد كبير من قصائدها. وفقدان السمع لدى موسيقي كبيتهوفن، رغم ما فيه من عمق فقدان، فتح له أفق الإصغاء الباطني وموسيقى الأعماق.

كتابها "الشهرة المرة: حياة سيلفيا بلاث" أثار الكثير من الضجيج، أربك حياة الشاعرة المعتزلة، وطمس من شهرتها التي تستحقها كشاعرة. مع أنها تشترك والشاعرة المنتحرة بنقاط لقاء عديدة. فكلاهما أمريكي فضّل الإقامة في انكلترا، وإقامة عائلة فيها، ومن جيل واحد يسعى باتجاه القصيدة الغنائية ذات التضاريس. إلا أن آن أكثر قوة ومقاومة. وهي تنفرد بروح شعرية مضادة لسطوة الأنا ومركزيتها. فلقد تبين لها أن الإنسان لم يعد مركز الكون. وأنه تحرر فعلي أن "أنا" أحدنا المتضخمة لم تعد تسد عليه منافذ الرؤية الواضحة.

آن ستيفنسون ليست شاعرة أمريكية خالصة، ولا إنكليزية خالصة، ما جعل جمهور قرائها محدوداً في البلدين. ولقد دعم هذا طبيعة الكياسة والعمق والتهذيب التي يتحلى بها شخصها وشعرها.

Ann Stevenson: Poems 1955-2005 (Bloodaxe)×

متابعة

الربيع العربي يهمّش المثقفين

شاكر الأنباري

الربيع العربي بثوراته الشعبية، في أكثر من بلد، لم يفاجئ الحركات السياسية والمفكرين والباحثين فقط، إنما فاجأ المثقفين أيضا. هؤلاء الذين ترعرعوا في بيئة أخرى، كانت تتراوح بين الديكتاتورية، والليبرالية الزائفة، وسطوة العسكر، تتحكم في تلك البيئة أجهزة المخابرات، ورجال الأمن، والتجار، والانتهازيون. ترعرعوا وكتبوا ضمن مجتمعات كانت ساكنة إلى حد ما، الفرد فيها منمط إلا أنه يختزن طاقة للتمرد لم يرها الباحثون، والمفكرون، والمثقفون، ولم يستشفوها.

معظم الإبداع العربي كان يتكلم عن ذلك المجتمع، وذلك الفرد، بآليات معروفة متكلسة منذ أكثر من أربعة عقود. التظاهرات الشعبية، والتمردات العفوية، والهزات الاجتماعية، التي كنا شهوداً عليها ظلت غائبة إلى حد ما عن رؤية المثقف. وكانت ظواهر مثل الفيس بوك، واليوتيوب، والتويتر، وغيرها من أساسيات الثورة العلمية، والإعلامية، بعيدة عن تصورات المثقفين، والبعض منهم لم يلامسها أو يستفد من إمكاناتها في التواصل الاجتماعي والتحريض والتمرد، عكس الكتلة الواسعة من الشعب، التي كانت تتحول قليلا قليلاً إلى إعلاميين، ومثقفين عضويين، ومنظمين لتظاهرات، ومؤسسين لمنظمات مجتمع مدني. وهي بمجموعها كانت الرافعة لثورات الربيع العربي.

في مصر على سبيل المثال، بدأت معظم المؤسسات الثقافية والتقاليد القديمة تتهاوى أمام ثورة الجموع، فصعدت أسماء جديدة، وغابت أسماء، وتغيرت مفاهيم، ونبتت قصص وروايات ونصوص مختلفة عما ألفه القارئ العربي، والمشاهد عموما. التقاليد الفنية والثقافية والإبداعية السابقة تحطمت، وأخذت البيئة الثقافية تبحث من جديد عن تقاليد موسومة بثورة الشعب المصري. في ليبيا أيضا، تهاوت مهرجانات العقيد ومؤسساته وجوائزه، وبرزت وجوه مغيبة تحاول أن تعكس حقيقة المجتمع الليبي، الحقيقة التي غطى عليها الكتاب الأخضر طيلة خمسة عقود. في سورية، واليمن، والبحرين، وتونس، وغيرها من البلدان، يجري الشيء ذاته، تحطيم البنية التقليدية السابقة للثقافة، هي ورموزها السلطوية، وصعود تيار شبابي جديد، صنع الثورة وشارك فيها، وهو في الطريق لكي يقطف ثمارها. لكن ليس على الطريقة القديمة. ونحن أمام نصوص وأعمال فنية ولوحات وربما أغانٍ، لم تعد ترضى بتكرار الجمل ذاتها، والألوان ذاتها، والمسرحيات ذاتها. تلك بضاعة بارت، ولم تعد تقنع أحداً. إنها تتكلم عن مجتمع سابق للربيع العربي، وتتكلم عن فرد لم يعد موجودا، سواء بهمومه اليومية أم الاجتماعية.

البديهية المعروفة أن الثقافة لا تزدهر إلا في ظل استقرار مجتمعي، كونها تميل إلى التأمل، والبحث، والمراجعة، ونقد البنى الثابتة والظواهر، لذلك فصعود موجة ثقافة الربيع العربي لن تتحقق قريبا. ما يجري اليوم هو تحطيم البنى العتيقة، أما التأسيس لبنى مغايرة، وإبداع نوعي، فأمامه فترة زمنية طويلة. حصلت تغيرات عميقة في روح الفرد، تهاوت أمكنة وزالت، رسمت خرائط طازجة، وأصبح ذلك الفرد المهمّش الذي شارك في تغيير تاريخه الخاص، والعام، في بؤرة العالم. صوته راح يسمع في جهات الأرض كلها عبر اليوتيوب، ولم يعد تغييب ذلك الصوت بالأمر السهل. كل ذلك سينعكس على البنية الفوقية التي تتشكل عبر الزمن، ألا وهي الثقافة. المراهنة على ثقافة الربيع العربي هي مراهنة على المستقبل دون أدنى شك.

جمال العتابي في الخميس الإبداعي

الغازية.. حاجب صبية يحيط بها الغراف

محمود النمر

احتفى ملتقى الخميس الإبداعي بالدكتور جمال العتابي بمناسبة صدور كتابه " كلمات متقاربة المدى " ما الذي تريد أن تقوله بهذه الكلمات ؟ هل ثمة صوت واحد يقيم في أعماقها ؟ أم أنها حشد من الأفكار تتناثر بعيدا لتصنع لغزها واستقلاليتها في بلد عصفت فيه التيارات السياسية والفكرية .

قدم الجلسة الإعلامي محمد سلمان، مشيرا إلى تاريخ هذا المبدع الذي توارث الإبداع من أبيه المعلم والمناضل صانع التحف العائلية .

العتابي الذي يزرع البسمات على الوجوه البريئة هو الذي يدرك فن اللعبة في الرسم والخط والكتابة والسياسة ،لا يتوانى في احتلال قلب الكلمة وخاصرة اللغة ومهارة الفرشاة وهندسة التصميم وزهو الألوان ،انه يعرف كيف يحرك خيوط اللعبة على مسرح الحياة الصاخبة .

واستذكر العتابي محطات حياته منذ كان في قريته الأولى، حيث تشكيل الوعي المبكر المزدحم بالأسئلة والفضول لمعرفة أي شيء ،أول ما اشار إليه في حديثه عن كتابه وتفصيلاته وأبوابه التي فتحت نوافذ من عشرات السنين عاشت معه من شخوص وأمكنة من ماض وحاضر ربما هي مفتوحة على مديات بعيدة، لكن العديد منها جاء من مسرح الحياة ،هي حاضرة في حياته وقال : إنها تصلح ان تكون روايات وقصصا اذكر منها استدعاء دائرة الأمن في ثمانينات القرن الماضي لوالدي وكنت أرافقه وكان في هذا الاستدعاء الذي بلغنا به بإعدام شقيقي الشهيد – سامي – وكان ذلك تبليغا شفويا ،وحينما اتجهنا إلى الشارع وبلمحة خاطفة لوالدي وجدت أن ظهره قد تقوس .

من هذه البدايات المؤلمة كان العتابي يلملم أوجاعه من خلال عيون الحضور وهو يروي قصة ذلك الأب الذي يحمل نعش الخبر للجسد المسجى في دائرة الأمن وهذا إعلان ظل مخفيا عن عائلة حسن العتابي ، حتى حين علمت أمه بهذا الخبر لم تصدق حتى عام ٢٠٠٢ حين فتح الطاغية أبواب السجون ، فقد كانت تعتقد انه سيأتي ،وماتت وهي تحلم به .

واسترسل العتابي في ذكرياته عن الغازية والنصر وهما قريتان على ضفاف نهر الغراف حيث يسكن أهله في غرفة طينية واحدة فيها مرسم ومكتبة وأولاد كان فيها حسن العتابي خطاطا وتشكيليا .

الغازية حاجب صبية يحيط بها الغراف وكنت أجدها أحلى مدن العالم ،هي مدينة منها عزيز السيد جاسم ومحسن الموسوي ومحمد صبري وطالب القره غولي وحسن العتابي .

ثم مر على التاريخ السياسي والإعلامي فذكر جميع من كانوا معه عبر عقود من الزمن المر ،وكانت هناك شهادات عديدة من قبل الحضور منهم حسب الله يحيى والفريد سمعان وحنون مجيد وريسان الخزعلي وبشير حاجم.

كانت هناك الكثير من باقات الورد مقدمة من اصدقاء العتابي ولوح الابداع للملتقى قدمه الشاعر الفريد سمعان.